منذر بدر حلّوم

في ظلّ نظامٍ مافيوزيّ عائليّ بطّاش، يبدو المعارضون مغامرين من نمط خاصّ: يحصلون على اللذّة من إعلاء صوتهم، أو من التعبير عن آراء إخوتهم المقموعين الخائفين، ومن إثبات وجودهم، ومن التأكيد (عبر أجسادهم وأرواحهم) أنّ أشدّ الأنظمة قمعيّةً أعجزُ من أن يجعل البشرَ يسكتون عن المظالم أو يستسلمون لإلغاء إنسانيّتهم أو يصفّقون لأكاذيبَ يعرفون هشاشتها.

كما تبدو المعارضة فعلاً في الأخلاق أكثر ممّا هي فعلٌ في السياسة. ففي حين يمكن فهمُ الموالاة فعلاً في السياسة يقوم على المصلحة بالدرجة الأولى (والسياسة، بمعنى من المعاني، فنُّ إدارة المصالح، وإنْ بلغت المصلحةُ دَرَكها الأسفل – البقاء بيولوجيّاً)، فإنّ معارضة نظامٍ مستبدٍّ كالنظام في سوريا لم تكن ممكنةً، قبل الخامس عشر من آذار، أن تقوم على أيّة مصلحة، لأنّ مسألة المعارضة بذاتها كانت تعني، على الدوام، خسارةَ كلّ شيء، انتهاءً بخسارة سنواتٍ من العمر أو الحياةِ نفسِها. ومنْ يقبل الدخولَ في لعبةٍ تشترط مسبّقًا خسارتَه كلَّ شيء، فسينطوي اشتغالُه على مبادئ أخرى تقوم خارج حقل السياسة.

حيث لا حريّةَ اجتماعٍ أو تعبيرٍ عن أيّ شيءٍ مغايرٍ لمقدّسات النظام وقوالبه، ينتفي فعلُ السياسة من حيث المبدأ. فلا يكون أمام الخاضع لنظام كهذا إلاّ أن يختار: بين أن يكون تابعًا ويرضى بحصّةٍ تُمنح له لوزنٍ عائليّ أو سواه؛ أو أن يرضى ببقايا تُلقى أمامه لضعةِ تبعيّته العائليّة أو العشائريّة أو لضآلة الخدمات التي يمكن أن يقدّمها؛ أو أن يتطهّر من رجس الموالاة فيكونَ شيئًا آخر.

أن يكون شيئًا آخر: ذلك هو تمامًا ما يختاره المعارضُ لموقفٍ خارج إمكانيّة السياسة وداخل حقل الأخلاق. هنا الأمر يتحدّد بمفرداتٍ بسيطة:

- فأن تكون ضدّ الظلم والاستعباد، وضدّ استباحة حرمات الناس وكراماتهم، يعني أن تكون معارضًا.

- وأن تكون ضدّ السرقة والرشوة، وضدّ نهب مال الشعب، وضدّ الكذب والتلفيق وتزييف الحقائق، يعني أن تكون معارضًا.

- وأن تكون ضدّ احتقار العقل والجمال والكبرياء، يعني أن تكون معارضًا.

- وأن تأبى التنازل عن خصوصيّتك وفرديّتك وفرادتك، يعني أن تكون معارضًا.

- وأن تكون ضدّ إهانة البشر وإذلالهم وقتلهم وتسييد أرذلهم على أنبلهم، يعني أن تكون معارضًا.

- وأن تكون ضدّ التقبيح والتجهيل وتخريب العقول، يعني أن تكون معارضًا.

- وأن تكون ضدّ سدّ آفاق العقل والإبداع، أمام نفسك أو أمام أبنائك، يعني أن تكون معارضًا.

- وأن تكون ضدّ تخريب مؤسّسات الدولة وتحويل إداراتها إلى هِباتٍ لأبناء عائلات السلطة، يعني أن تكون معارضًا، ناهيك بأن تكون مع الحريّة التي لولاها لما آل الوحشُ البشريُّ إلى إنسان.

معارضةُ النظام، الموصَّفِ بعضه أعلاه، قيمة بذاتها. المعارضة، هنا، قيمة إيجابيّة بصرف النظر عن أدائها. وهذا لا يعني امتداحَ الأداء المعارض، أيّاً كان. فامتداحُه أو ذمُّه يكون بمقدار الانسجام مع القيم التي يقوم عليها التضادُّ مع أخلاق الاستبداد؛ ذلك أنّ للتفوق الأخلاقيّ قيمةً هنا غير قليلة الشأن.

والمعارضة هنا تكون ممكنةً في فرديّتها وفي أخلاقيّتها. هذه المعارضة الفرديّة والأخلاقيّة تتحوّل في لحظةٍ ما من صامتةٍ إلى صائتة، من داخل الجدران إلى خارجها، من الآباء إلى الأبناء الذين نشأوا على قهر آبائهم الصامت وفصامهم بين البيت وخارجه. إنها تتحوّل إلى قوّة، وتنطلق ثورةً، أساسُها أخلاقيٌّ أكثر ممّا هو سياسيّ، وإنْ تعثّرتْ في أدائها، وبان منها ما لا يوافق أخلاقَ الثائرين على الظلم والقهر والاستغلال والاستغفال، بل وإنْ غفلتْ أحيانًا عن وحدة الظلم ووحدة المظلومين.

معلوم أنّ البنية الأخلاقيّة من أوائل البنى التي تهزّها الثورةُ، فتكون الأخيرة «ثورةً على» وتكون «ثورة من أجل.» وبالتالي، فهي، أخلاقيّاً، لا يجوز أن تكون ثورة من أجل شيءٍ شبيهٍ بالذي ثارت عليه. فإنْ لم تُعدْ ثورةٌ ضدّ الاستعباد والظلم والإذلال، تلقائيّاً وفي مجرى العمليّات الثوريّة، بناءَ منظومة القيم نحو قيم الحريّة والعدالة والكرامة، فذلك يعني أنّ ثمة خللاً جوهريّاً وقع في مكانٍ ما، ويعني أنّ الثورة لم تُفْضِ إلى أكثر من تبادل المواقع، مع المحافظة على آليّات الفناء الذاتيّ. العلّة ليست في النتائج بل في الأداء. فالأخلاق الجديدة لا تنبني بعد إنجاز الثورة، وإنّما

في مجراها. وأن تكون الثورة مستمرّة يعني أن يكون إنتاجُ البنية الجديدة مستمرّاً، ومنها البنيةُ الأخلاقيّة.

❖ ❖ ❖

هل يعني ذلك أنّ على البشر أن يستعدّوا لعمليّات تحوّلٍ عظيمة؟ لا يبدو أنّ الثورات العربيّة، ومنها الثورة السوريّة، تسير في هذا المنحى، ولا يبدو أنّها ثوراتٌ تَقْلب البنى. وأخشى القول إنها ثوراتٌ محدودةُ التأثير في البنيات الاجتماعيّة. وربما لهذا السبب، ولمحدوديّة إمكانيّات التغيير في عمق البنية الاجتماعيّة المؤسّسة لأشكالٍ مختلفةٍ من الاستبداد (وإنْ زال شكلُه السياسيّ)، ولأشكالٍ مختلفةٍ من البنيات الجزئيّة الخطيرة على البنية الأم (بنية الدولة)، ومن الانتماءات المعوّقة لممارسةٍ ديمقراطيّةٍ عادلة،... فإنني أرى في مجرى العمليّة الثوريّة أهمّيّةً خاصّةً تؤسّس ليس فقط لبنيةٍ سياسيّةٍ ينتظر الديمقراطيون منها أن تكون مدنيّة وديمقراطيّة، بل قد تعزّز أيضًا بنياتٍ تشكّل خطرًا على إمكانيّة الدولة المدنيّة وإمكانيّة الديمقراطيّة، وإنْ قُيِّض للثورة أن تنجح غدًا أو بعد غد.

لا أريد أن أرى في الثورة السوريّة التي أساندها بكلّ ما أستطيع، من دون أن أُسقط حقّي في تأمّلها ونقدها، لعبةَ كَراسٍ. بل أريد أن أراها مشروعًا بنيويّاً يُنتج قيمًا أخلاقيّة واجتماعيّة جديدةً تؤسّس لاندماجٍ يَخْدم الدولةَ السوريّة؛ اندماجٍ فَعَلَ الاستبدادُ كلَّ شيء من أجل جعله هشّاً. وطبيعيّ أنّ ذلك غيرُ ممكن دون وعي العمليّة الثوريّة ومؤدّاها. وقد يكون الوقتُ مبكرًا لتأمّل النتاج الأخلاقيّ والاجتماعيّ لثورةٍ لم تنهِ شهرَها الخامسَ بعد. لكنّ ما أدعو إلى تأمّله هو هامشُ الثورة، لا متنُها فحسب.

قد تكون الثورة محدودة جغرافيّاً، لكنّ دائرة تأثيرها كبيرة في جميع الحالات. والأهمّ من ذلك هو أنّ الثورة قد تكون في وادٍ، ويكون صداها في وادٍ آخر. ولستُ أدري إنْ كان يجدر إبداءُ الأسف هنا. ففي الأتون، في بوتقة الفعل، يكاد كلُّ شيء يحترق، وما يُبنى عليه هو ذلك الشيء الأوحد الواقع خارج البوتقة، هو الصدى، هو المدى الذي يبلغه تأثيرُها بعيدًا عن مركزها، هو الهامش. في الهامش يتمّ تداولُ الأخلاق. هنا سُوقها. هنا تتحوّل إلى نُقط استقطاب اجتماعيّ، ومن ثمّ سياسيّ.

بماذا يتفوّق هؤلاء على أولاء؟ سؤال تأسيسيّ، يُطرح في الهامش. وبالتالي فالثورة يجب أن تتفوّق أخلاقيّاً، ليس من أجل أنصارها فقط، بل من أجل معارضيها ومناوئيها أيضًا بالدرجة الأولى. وفي قولٍ إنّها غيرُ معنيّة بإثبات أخلاقيّتها استخفافٌ بمستقبلها، وبدماءِ مَن يضحّون بأرواحهم من أجل إنجازها. مستقبل الثورة يقع هنا بالذات. فأمر ليس طيّبًا أن تتبنى الثورة المفهومَ البيولوجيّ الذي أنتجه الاستبدادُ عن البشر، فلا تفكّر خارج ذلك. من الضروريّ، بل من المفصليّ، أن تتبنّى فهمًا لهم يقع ما فوق البيولوجيا. هنا اشتغالُها الجامع، وهنا لتفوّقها الأخلاقيّ أهميّة خاصة. المسألة، في جانب منها، براغماتيّة أيضًا. فلا يمْكن أيّةَ ثورةٍ أن تَعِدَ على المدى القريب بوضعٍ اقتصاديّ أفضل من الذي ثارت عليه. فهي، إذن، لن تتفوّق في الأفق المنظور اقتصاديّاً على النظام الذي قلبتْه. ولا يبقى أمامها إلا أن تتفوّق أخلاقيّاً. فإنْ سقطتْ هنا سقطتْ كليّاً، وكان لا بدّ من ثورة مضادّة. فلا أحد يستطيع ضمان حدوث ثورة متمِّمة؛ ناهيك بأنّ الشعوب ليست حقول اختبار، وأنّ البشر ليسوا فئرانَ تجارب، وليس من حقّ أحد أن يضحّي بأيّ أحدٍ آخر خلا نفسه.

❖ ❖ ❖

الأخلاق، بما هي ابنةُ المجتمع، أو ابنةُ العمليّات الاجتماعيّة، هي أخلاقٌ سيرورة، لا أخلاقُ نتائج فقط. بل هي الأولى أكثر ممّا هي الثانية. وبدرجةٍ ما، يمكن الحكمُ على نظام سياسيّ من خلال الأخلاق التي تسود المجتمعَ في فترة حكمه. وهكذا، فلا بدّ من تأمّل الأخلاق التي تسود الممارسةَ الثوريّة لمعرفة إلى أين تسير الثورةُ. وبهذا المعنى، لا بدّ من تأمّل الأساليب والأدوات والخطوات التي تتمّ على أرض سوريا اليوم. نافل القول إنه ليس كلُّ طريق ضدّ الظلم عادلاً، ولا كلُّ خروج نحو الكرامة يصون الكرامات، ولا كلُّ دفاع عن الحياة يصون الحيوات، ولا كلُّ دفاع عن الأعراض يحفظ الأعراض. مقولاتٌ كمثل «الغاية تبرر الوسيلة» و«العبرة بالنتائج» لا تصلح للخروج من الاستبداد، وكل استعارة لأدوات النظام الذي يتمّ الخروجُ عليه لا تصلح أيضًا. للحريّة وللعدالة أدواتٌ أخرى غير أدوات الاستبداد.

❖ ❖ ❖

منذ اليوم الأول للانتفاضة السوريّة، سقط النظام. سقط أخلاقيّاً. ولكنّه قد يبقى طويلاً قبل أن يتداعى بنيةً. فهل انتصرت الثورة السوريّة التي قد تُضطرّ إلى بذل كثيرٍ من الأرواح قبل أن تتمكّن من إزاحة المهزوم؟ هل انتصرتْ أخلاقيّاً؟ وإنْ فعلتْ، فهل تستطيع الحفاظ على نصرها الأخلاقيّ؟

لن نضيف شيئًا إذا صرخنا ليل نهار بأنّ النظام قاتل وكاذب. ولكنْ سيكون قاتلاً للثورة إذا سمحت الممارساتُ على الأرض لأحدٍ أن يقول ذلك بحقّها. فالقاتل من «التوّار» عدوٌّ للثورة، ليس أقلّ إجرامًا بحقّها من عصابات النظام، لا لأنّه يجرّدها من تفوّقها الأخلاقيّ فحسب، بل لأنه يرسم أيضًا أفقَها الممكن، ويجعل الهامشَ يحتدم ليس نحو الثورة، بل نحو ارتداداتٍ لها تُبْطلها، أو تحْرق حاضنتَها الاجتماعيّة.

ما يحدث في المركز (بؤر الثورة) يتردّد صداه مضاعفًا في الهوامش. وهناك يعاد إنتاجُ الفعل نحو أفهام تسوِّغ جميعَ

المواقف المحتملة من أقصاها إلى أقصاها. في الهامش، تشتغل آليّةُ تضخيم الحدث وتشظيته وتكثيره على صورة الحدث الأم، ولكنْ بصور أكثر هولاً وبشاعة. هنا يجد الطائفيُّ ملاذًا لطائفيّته في فعل الآخر، ويجد الساكتُ خوفًا موئلاً لخوفه في ممارساتٍ تأتي من هنا وهناك، ويجد المتوحّشُ مسوِّغًا لوحشيّته في وحشيّة الآخر. هنا يؤسطَر كلُّ حدث ويؤيقَن، حتى يغدو التخلّي عنه تخلّيًا عن جزء من الانتماء، وأحيانًا من الشخصيّة، في مثل حالات تسويغ أفعال التعذيب والقتل. الهامش يُنتج، بفعل حوادثَ لا تبدو للبعض ذاتَ شأن، صادّاتٍ للثورة، بل لفكرة الدولة نفسها، وليس فقط للدولة المدنيّة الديمقراطيّة التي تطالب بها شرائحُ واسعةٌ من ممارسي الفعل الثوريّ. ولا يفيد مفهومُ العداء هنا في تسويغ شيء، ولا تَفهُّم الضعف البشريّ يَقْدر على إنقاذ المتن الثوريّ من ردّ فعل الهامش مضخّمًا ومعادَ الخلق ومشوّهًا ومخيفًا. فثمة عتبة إنْ تمّ تجاوزُها تسقط فاعليّةُ كلّ تَفهّم وتحمّلٍ وتسامح وعقلانيّة. الأخلاق هنا تنكفئ إلى أضيق الحقولِ التي تحتملها فكرةُ العداء. هنا تنتج أخلاق ثأريّة. والثورة لا تثأر. الثورة تقوم «من أجل» وليس فقط «ضدّ»؛ وهي ليست ضدّ بشر إنما ضد بنية توحّد المظلومين والضحايا.

في إغماض العين عن الروح الثأريّة، التي تتوالد في الهامش بفعلٍ ممّا ينتجه متنُ الثورة، مقتلُ الأخيرة. هنا، يمكن أن تنطلق دراما الفناء الذاتيّ في أيّة لحظة، لينلعب الجحيمُ على أرض سوريا.

مرّةً أخرى، الثورة اندلعتْ من أجل الحريّة والديمقراطيّة ومن أجل السوريين جميعًا، إلاّ من لا يجد منهم لنفسه حياةً مع الحريّة والديمقراطيّة؛ فمثواه إذّاك العدالةُ وما تقرّره له من مصير. وإذا كان الطغيانُ ينتج عواملَ فنائه الذاتيّ على مدًى زمنيّ طويل، فمن المؤسف والمقلق جـدّاً أن تنتجها الثورةُ في أشهرٍ قليلة. ففي الهامش تتمّ تفاعلاتٌ أخطرُ من أن يشيح عنها متنُ الثورة يدَه؛ فإنْ فعل أُسقط في يده. والدعواتُ الأخلاقيّة لا تفيد هنا في شيء؛ فما يفيد هو حرصُ الأداء الثوريّ على التفوّق الأخلاقيّ، على سلميّة الحراك مهما تكن الأثمان. وفي غير ذلك خسارةٌ أكيدة.

الثوّار في الشوارع ليسوا رجالَ سياسة، وعلى شاحذي الهمم من السياسيين ورجال الدين أن لا يغرقوهم في الأوحال والدماء، لأنّ ذلك يعني تمريغَ الحلم السوريّ بالوحل والدم.

أجل، الطغيان ينتج آليّات فنائه الذاتيّ التي تعمل في لحظةٍ ما بصورةٍ مباغتة، كما حدث ويحدث في الثورات العربيّة، وتفضي بالنتيجة إلى انقلاباتٍ قد تكون جوهريّةً وقد لا تكون. لكنّ الثورات أيضًا قد تنتج آليّاتِ فنائها، والأخيرةُ أيضًا يمكن أن تعمل على حين غرّة. وهنا لا تفيد النوايا الحسنة في شيء، ولا تجمّل أيَّ موت. الثوّار في الشوارع ليسوا رجالَ سياسة، إنما هم رجالُ مبادئ وأخلاق، وعلى شاحذي الهمم من السياسيين ورجال الدين أن لا يغرقوهم في الأوحال والدماء، لأنّ ذلك يعني تمريغَ الحلم السوريّ بالوحل والدم.

لقد تفوّقت الثورةُ السوريّة أخلاقيّاً إلى اليوم، وعليها أن تتفوّق غدًا وبعد غد، إلى أن يأتي فجرٌ تشرق فيه شمسُ الحرية.

منذر بدر حلّوم

روائيّ وأستاذ جامعيّ سوريّ